﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣﴾ [طه:123]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ربـطُ معصيةِ آدمَ وتـوبتِـه بـإنـزالـه إلى الأرض وإمـداده بالهدى والنَّجاة

لمّا قدَّم ﷻ عنايتَهُ بآدمَ عليه السلام اهتمامًا به، وكان الخبرُ عن زوجه وعن إبليسَ لم يُذكر، فكانت نفس السّامع لم تسكن عن تشوُّفِها إلى سماع بقيَّة الخبر؛ أجاب عن ذلك بأنَّه أُهبطَ من الجنَّةِ إلى دار الابتلاء[1]، فختمَ سبحانه هذه الآياتِ ببيانِ ما آلَ إليه أمرُ آدمَ عليه السلام[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱهۡبِطَا﴾: الهبوط الانحدارُ على سبيل القهر[3]، وهَبَطَ هُبُوطًا، والهَبُوط الحُدور، وهَبَطَهُ يَهْبُطُه بالضَمِّ، أي: أنْزَلَهُ، وأصل (هبط) يدلُّ على انحِدارٍ[4]، فهَبَطَ لازمٌ ومتعدٍّ، إلّا أنَّ مصدرَ اللازِم: الهُبُوطُ، ومصدر المتعدّي: الهَبْطُ[5]، يُقال: هَبَط الوادي؛ إذا نزل بِهِ، وهَبَطَ مِنْهُ؛ إذا خرج مِنْهُ[6]، والمعنى هُنا: انزلا[7].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

أمـرُ الله تعالى لآدم وزوجـه بـالـهُـبـوط من الـجـنَّـة إلى دار الابتلاءِ والعمل

قالَ الله لآدمَ وحوّاءَ: انزلا من الجنَّةِ أنتما وإبليس، فهو عدوٌّ لكما، وأنتما عدوّان له، ولن نتركَكم هَمَلًا، ولكن سنرسلُ إليكم هدًى، فمَنِ التزم به، وتَبِعَهُ بعزيمةٍ صادقة، ونيَّةٍ خالصةٍ، فلا يلحقُهُ ضلالٌ، ولا يطالُهُ خسرانٌ، وعليه فإن جاءكم مِنّي ما وعدتكم به،

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 360.
(2) الطّنطاوي، التفسير الوسيط: 09/ 163.
(3) الراغب، المفردات، ص: 536.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هبط).
(5) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 5/ 300.
(6) الكفويّ، الكليات، ص: 962.
(7) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 16/ 160.

فمَن اتَّبع منكم بيانَ سبيلي، وعملَ به، ولم ينحرف عنه؛ فإنَّه يُرشَدُ في الدُّنيا، ويُهْدَى، ولا يشقى في الآخرة بعقاب الله، فيَرْدَى[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ فصلِ الجُملة الكريمة عن سابقتها:

بسْطُ الإخبارِ بأثرِ المُخالفة وما نتج عنها من جزاءٍ

قولُهُ تعالى: ﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢا﴾ استئناف بيانيٌّ؛ لأنَّ الإخبارَ عن آدمَ بالعصيان والغواية، يُثير في نفس السّامع سؤالًا عن جزاء ذلك[2]، فكأنَّه قيل: فماذا أمره تعالى بعد ذلك؟ فقيل: قالَ لَهُ ولزوجته: اهبطا منها جميعًا، فهي استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال، نشأ من الإخبارِ بأنَّه تعالى عاملَهُ بما عامله[3]، والهبوطُ من دار الأمن والسُّرور إلى دار العداوةِ والغرور، فيكون بعضُكم لبعضٍ عدوًّا، "يعوقُكم، ويغويكم عن أمر المعاد، فتبقى هذه العداوةُ بينكم ما دمتم فيها"[4].

مرجعُ الضَّميرِ المستكنِّ في فعل القول وأثرُهُ:

بيانُ أنَّ تعليق الخروجِ من الجنَّة كان مبنيًّا على معصيةِ الأكلِ مِنَ الشَّجرة

ضمير ﴿قَالَ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱهۡبِطَا﴾ عائدٌ إلى ﴿رَبُّهُۥ﴾ من قولِه تعالى في الآية السّابقة: ﴿ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾[5]، فالمعنى: قال الله تعالى لآدم وحواء: اهبطا من الجنَّة؛ لأنَّ مكثَهُما فيها كان مُعَلَّقًا على عدم أكلِهما من الشَّجرة[6].

نوعُ الأمرِ في ﴿ٱهۡبِطَا﴾ وأثرُهُ:

الهبوطُ إلى الأرض بأمرٍ تكوينيٍّ مُبرمٍ بتقدير الله المحكم

الأمرُ في ﴿ٱهۡبِطَا﴾ أمرٌ تكوينيٌّ؛ لأنَّهما عاجزان عن الهبوط إلى الأرض إلّا بتكوينٍ من الله؛ إذ كان قرارُهما في عالم الجنَّة بتكوينه

(1) جماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/ 320، وجماعة من العلماء، التَّفسير الميسّر: 1/ 320.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 16/ 328.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 584.
(4) نعمة الله علوان، الفواتح الإلهيّة والمفاتح الغيبيّة: 1/ 524.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 16/ 328.
(6) الصّاويّ، حاشية الصّاويّ علي الجلالين: 2/ 444.

تعالى[1]، وقد سبق في علمه تعالى أنَّهما يأكلانِ منها، فهو أمرٌ مُبرم، والمعلَّقُ على المُبرم مبرمٌ، فإخراجُهما ليس للغضب عليهما بل لمزيد شرفهما، ورفعة قدرهما؛ لأنَّهما خرجا من الجنَّة مُنفردَين، ويعودان إليها مع أولادهما[2].

سرُّ إفرادِ لفظ (الهبوط) وتثنيته وجمعِه في القرآن الكريم:

الخطابُ بالإفراد لإبليس، وبالتَّثنية لطرفَي الصِّراع، وبالجمع للجميع

الإهباطُ تارةً يَذكُرُه بلَفظِ الجَمع، وتارةً بلَفظِ التَّثنية، وتارةً بلَفظِ الإفرادِ، كقَولِه في سورةِ الأعراف: ﴿قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا﴾ [الأعراف: 13]، وكذلك في سورة ص، وهذا لإبليسَ وحدَه، وحيث ورد بصيغةِ الجَمع، فهو لآدَمَ وزَوجِه وإبليسَ؛ إذ مدارُ القِصَّةِ عليهم، وحيث ورد بلَفظِ التَّثنية: فإمّا أن يكونَ لآدَمَ وزَوجِه؛ إذ هما اللَّذانِ باشرا الأكلَ مِنَ الشَّجَرةِ، وأقدَما على المعصيةِ، وإمّا أن يكونَ لآدَمَ وإبليسَ؛ إذ هما أبَوا الثَّقَلين، وأصلا الذُّرِّيَّةِ؛ فيكون المأمورُ بالهبوط من الجنَّة آدم وإبليس، وأمّا حوّاءُ؛ فتَبَعٌ لزوجها[3]، فالخطاب لآدم ومعه ذريَّته، ولإبليس ومعه ذريَّته، فصحَّ قوله: ﴿ٱهۡبِطَا﴾؛ لاشتمال كُلِّ واحدٍ من الجنسين على الكثرة، فذَكَر حالَهما ومآلَ أمرِهما؛ ليكونَ عِظةً وعِبرةً لأولادِهما[4]، والأمر بالجمعِ في قوله: ﴿ٱهۡبِطُواْ﴾ [البقرة:36]؛ لأنَّ المُرادَ هبوطُ آدمَ وحوّاءَ وإبليسَ[5].

سرُّ الالتفاتِ من المُثَنَّى إلى الجمع في السّياق:

تنويعُ المعاني وتكثيرُها من فصيح البيان

قولُه تعالى: ﴿ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم﴾، التفاتٌ من خطاب المثنّى إلى الجمع، وقدِ اختلفَ العلماء في وجه الجمع والتَّثنية في الآية الكريمةِ: فمِنهم مَن جعل الخطابَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 16/ 328.
(2) الصاوي، حاشية الصّاويّ على الجلالين: 2/ 444.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 16/ 328.
(4) ابن القيِّم، حادي الأرواح، ص: 30، والخازن، تفسير الخازن: 3/ 217.
(5) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 7/ 317.

لآدمَ وحواءَ ﷺ؛ لأنَّهما أصلُ البشر[1]، فلمّا كان آدمُ وحوّاءُ ﷺ أصلَي البشرِ، والسَّببين اللَّذين منهما نشَؤُوا وتفرَّعُوا؛ جُعِلا كأنَّهما البشَرُ في أنفُسِهما، فخُوطِبا مُخاطبَتَهم، ولمّا كانا أصلَي الذُّرِّيَّةِ؛ خاطَبَهما مُخاطبَتَهم، فقال: ﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ﴾، ويُؤيِّدُه قولُه: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى﴾، وذلك على القولِ بأنَّ الخِطابَ لآدَمَ وحوّاءَ[2]، ومنهم مَن حملَ الخطابَ في قوله تعالى: ﴿بَعۡضُكُمۡ﴾ على أنَّه خطابٌ لآدم وإبليس، وخُوطِبا بضمير الجمع؛ لأنَّه أُريد عداوةُ نسليهما، فإنَّهما أصلان لنوعين: نوعِ الإنسان، ونوعِ الشَّيطان[3].

دلالةُ التَّقييد بالحال: ﴿جَمِيعٗاۖ﴾:

نصب قولَهُ تعالى: ﴿جَمِيعٗاۖ﴾ على الحال، فهو هنا حالٌ من ضمير ﴿ٱهۡبِطَا﴾[4]، وهو اسمٌ لمعنى كُلِّ أفراد ما يُوصف بجميع، وكأنَّه اسم مُفردٌ يدلُّ على التَّعدُّد، مثل: فريق، ولذلك يستوي فيه المذكَّر وغيره، والواحد وغيره، ولفظ ﴿جَمِيعٗاۖ﴾ في سياق الآية يعني: هبوطكم إلى الأرض جَميعًا، أصلًا وفرعًا، صديقًا وعدوًّا، وبعد هبوطكم إليها سيكون بَعْضُكُم لِبَعْضٍ عَدُوًّا في أمور معاشكم[5].

الدَّلالةُ على التَّعدُّد لكُلِّ أفراد ما يوصف بقوله (جَميعًا)

نُكتَةُ فصلِ جملة ﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ﴾ عمّا قَبلها:

يحتمل أن تكون جملةُ ﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ﴾ حالًا، والتَّقدير: (اهبطوا مُتَعادينَ)[6]، ويحتمل أن تكون جملةً مُستأنفَةً استئنافًا بيانيًّا، أي: واقعةً في جواب سؤال مقدَّرٍ[7]، وهو: ما يكون حالنا بعد هذا الإهباطِ؟ فجاء الجواب: ﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ﴾[8].

بيانُ الحال بعد بيان المآلِ في سياق المقال

(1) الخازن، تفسير الخازن: 3/ 217، والعليميّ، فتح الرحمن: 4/ 332.
(2) الزمخشري، الكشّاف: 3/ 94، والبيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 41، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 393.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 16/ 328.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 328.
(5) نعمة الله علوان، الفواتح الإلهيّة والمفاتح الغيبيّة: 1/ 524.
(6) القاسميّ، محاسن التَّأويل: 7/ 152.
(7) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 2/ 445.
(8) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 360.

دلالةُ التَّقييد بالجملة الحاليَّة بعد التَّقييد بالحال الصَّريحة:

التَّأكيدُ على وقوعِ العداوةِ بين الفريقين وذريّاتهما

لما كان السّياق الكريمُ لبيان وقوع النِّسيان، وانحلال العزمِ بعد أكيد العهدِ؛ حرَّك العزمَ وبعث الهمم بإيقاع العداوة الَّتي تنشأ عنها المُغالبة، فتبعثُ الهممَ، وتثيرُ العزائم، وذلك بعداوة كُلٍّ من الفريقين للفريق الآخر: فريقِ إبليسَ - الَّذين هم الجِنُّ - بالإضلال، وفريقِ الإنس بالاحتراز منهم[1]، فجملةُ ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ حاليَّةٌ، والمعنى: (مُتعادين)[2].

دلالةُ (الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم﴾:

الإشارةُ إلى أنَّ العداوةَ سببٌ في أنْ يبعث لهم الرُّسلَ للهداية

الفاءُ في قوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم﴾ حرفُ تفريعٍ، أي: فتسبَّب عن ذلك العلم بأنَّه لا قُدرةَ لأحد منكم على التَّحرُّز من عدوِّه إلّا بي، ولا حرز لكم من قِبَلي إلّا اتِّباع أمري[3]، وفي العطف بها إشارةٌ إلى أنَّ العداوة سببٌ في أنْ يبعثَ لهم الرُّسل، يهدونهم إلى طريق الحقِّ، فضلًا منه تعالى[4].

دلالةُ تفريعِ التَّفصيلِ والتَّسبيب على الأمر بالهُبوط:

الإنباءُ بدخول الإنسان في طورِ الامتحان بعد طورِ التَّنعُّم في الجنان

تفريعُ جملة ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ على الأمر بالهبوط من الجنَّةِ إلى الدُّنيا، إنباءٌ بأنَّهم يستقبلون في هذه الدُّنيا سيرةً غير الَّتي كانوا عليها في الجنَّة؛ لأنَّهم أُودِعوا في عالم خليطٍ خيرُهُ بشرِّهِ، وحقائقُهُ بأوهامِهِ، بعد أن كانوا في عالم الحقائقِ المحضةِ والخيرِ الخالص، وفي هذا إنباءٌ بطور طرأ على أصل الإنسانِ في جبلَّتِهِ، كان معدًّا له من أصل تركيبهِ[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 360.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 152، والأيجيّ، جامع البيان: 2/ 531.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 361.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 156، وابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 430.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 16/ 329.

بيانُ وجه الخطاب وجهته في ﴿يَأۡتِيَنَّكُم﴾:

الخطابُ في قولِه: ﴿يَأۡتِيَنَّكُم﴾ لآدم، باعتبار أنَّه أصلٌ لنوع الإنسان، إشعارًا له بأنَّه سيكون منه جماعة، ولا يشمل هذا الخطابُ إبليسَ؛ لأنَّه مفطورٌ على الشَّرِّ والضَّلال؛ إذ قد أنبأهُ اللّه بذلك عند إبايته السُّجودَ لآدمَ، فلا يكلِّفُهُ اللّه باتِّباع الهدى؛ لأنَّ طلبَ الاهتداءِ ممَّن أعلمَهُ اللّه بأنَّه لا يزال في ضلال يعدُّ عبثًا يُنزَّه عنه فعل الحكيم تعالى، وفي هذه الآية وصايةُ اللّه آدم وذريَّته باتِّباع رسلِ اللّه والوحي الإلهيِّ، وبذلك يعلم أنَّ طلب الهدى مركوزٌ في الجبلَّة البشريَّة، حتّى قال كثير من علماء الإسلام: إنَّ معرفة الإله الواحد كائنةٌ في العقول، أو شائعةٌ في الأجيال والعصور[1].

الخطابُ مخصوصٌ لآدمَ عليه السلام وذرّيته

دلالةُ تنكير لفظة ﴿هُدًى﴾:

اختلف أهلُ التَّفسير في المراد بالهدى، فقال بعضُهم: الرُّسل، وبعضهم قال: الأدلَّة، وبعضهم قال: القرآن، والتَّحقيقُ أنَّ الهدى عبارة عن الدَّلالة، فيدخل فيه كُلُّ ذلك[2]، والهدى يجيء على لسان الهادي، وهو الرَّسولُ المبعوث بعنايةٍ من ربِّ العالمين، وهو حاملٌ للبشارة لمن اتَّبع الحقَّ، والتزم به، وللنِّذارة لمن ضلَّ عن سبيله وهداه، ولا شكَّ أنَّ هذا هو موجب التَّكليف؛ إذ لا تكليف إلّا بوجود بيان، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ١٥﴾ [الإسراء:15][3].

الدَّلالةُ على عمومِ الأدلَّةِ المُرشدة إلى الحقِّ

إيثارُ صيغةِ الافتعال في الاتِّباع:

في قولِه تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ﴾ عبَّر بصيغة (افْتَعَلَ) الَّتي فيها تَكَلُّفٌ وتَتميم للتَّبَع النّاشئ عن شِدَّة الاهتمام[4]؛ لأنَّ اتباعَ الهُدى لا يتكامل إلّا بأن يُستدلَّ به، وبأن يعمل به[5].

الدَّلالةُ على شِدَّة الاهتمامِ، وضرورةِ العمل بالهُدى والعلم

(1) الخازن، تفسير الخازن: 3/ 217، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 16/ 329.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 110.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 9/ 1803 (بتصرّف).
(4) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 361.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 393.

بلاغةُ الاستعارةِ في التَّعبير عن الاهتداء بالاتِّباع:

بيانُ أنَّ تصوير المعنى في صورة المحسوس، تقريبٌ للأفهام، وتوضيحٌ للأنام

الاستعارة في قوله: ﴿هُدَايَ﴾ ، وهي استعارةٌ مكنيَّة، حيث شبَّه الهدى بطريق يتَّبِعُهُ الإنسانُ، وحذفَ المشبه به، وذكرَ صِفةً من صفاته، وهي كونه يُتَّبَع[1]، فأنزل الهُدى الَّذي هو شيءٌ معنويٌّ منزلةَ المحسوسِ، كالطَّريق الَّذي يتبعه الإنسان في سيره، وذلك من باب تصويره بمنزلة المحسوس الَّذي لا يخفى على أحد، فطريق الله تعالى واضح بَيِّنٌ، لا يلتبس على أحد.

نكتةُ إيثارِ الظاهر على المضمرِ في السّياق:

تشريفُ هُدى الله والمُبالغةُ في إيجاب اتِّباعه مبينٌ عن المراد

وضعَ النَّظمُ الكريم الظّاهرَ في قولِه: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ﴾ مَوضِعَ المُضمرِ، حيث لم يقُلْ: (فمَنِ اتَّبَعه) ، مع الإضافةِ إلى ضَميرِه تعالى؛ لتَشريفِه والمُبالَغةِ في إيجابِ اتِّباعِه[2]، وحكمة اختيار الظاهر على المضمر أيضًا، أنَّ المُضمَر يشمل ما جاءهم عن طريق الشَّرع والعقل والدَّليل[3]، هذا بخلاف الظاهر المسند لله الَّذي يدلُّ على ما جاء عن طريق الشَّرعِ فقط، وهو المقصودُ هُنا.

دلالةُ الفاءِ في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَضِلُّ﴾:

ربطُ الجوابِ للشَّرط السّابق مفيدٌ في تجلية البيان

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَضِلُّ﴾ رابطةٌ للجواب، والمعنى: بسببِ اتِّباع هدى الله والاستقامةِ على أمره وهداه، فمَن هذه حالُهُ، فقد ضمن تعالى ألّا يضلَّ عن طريق السَّداد في الدُّنيا، ولا يشقى في الآخرة؛ لأنَّه تعالى هو الَّذي يهديه إلى الجنَّة[4]، فلا سبيل للتَّحرُّز من عدواة الشَّيطان إلّا باتِّباع هُدى الرَّحمن، وقد قال تعالى مخاطِبًا الشَّيطان منذُ بدءِ الصِّراع: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر:42].

(1) الدبل، دليل البلاغة القرآنية: 1/ 62.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 47.
(3) الدبل، دليل البلاغة القرآنية: 1/ 61.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 393، والبقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 361.

دلالةُ الفعلِ المضارع ﴿يَضِلُّ﴾ في حيِّز النَّفي:

بيانُ أنَّ الهدايةَ الرَّبانيَّة عامَّةٌ وشاملة لِكُلِّ النَّواحي وللمناحي

قوله تعالى: ﴿فَلَا يَضِلُّ﴾ معناه: أنَّه إذا اتَّبع الهدى الواردَ من الله على لسان رسلِهِ؛ سَلِمَ من أن يعتريَهُ شيءٌ من ضلال، وهذا مأخوذٌ من دلالة الفعلِ في حيِّز النفي على العموم، كعموم النَّكرة في سياق النَّفي، أي: فلا يعتريه ضلالٌ في الدُّنيا، بخلاف مَنِ اتَّبع ما فيه هدًى وارد من غير الله، فإنَّه - وإن استفاد هدًى في بعض الأحوال - لا يسلمُ من الوقوع في الضَّلال في أحوال أخرى، وهذا حالُ متَّبعي الشَّرائع غير الإلهيَّة، وهي الشَّرائع الوضعيَّة، فإنَّ واضعيها - وإن أفرغوا جهودهم في تَطَلُّب الحقِّ - لا يسلمون من الوقوعِ في الضلالات بسببِ الغفلات، أو تعارض الأدلة، أو انفعالٍ بعادات مُستقرَّة، أو مُصانعة لرؤساء أو أمم رأوا أنَّ من المصلحة طلبَ مرضاتهم[1].

نكتةُ عَطْفِ نفي الشَّقاءِ على نفي الضَّلال:

غايةُ ذِكْرِ الغاية بَعْدَ ذِكْرِ الطَّريق المُوصل إليها

قولهُ تعالى: ﴿وَلَا يَشْقَىٰ﴾، أي: في شيء من سعيه في واحدة منهما، فإنَّ الشَّقاء عقابُ الضَّلال، ويلزمُ من نفيه نفيَ الخوف والحزن، فضمِن الله ﷻ لمن اتَّبع القرآن ألّا يَضِلَّ في الدُّنيا، ولا يشقى في الآخرة[2]، والشَّقاء المنفي في قوله: ﴿وَلَا يَشْقَىٰ﴾ هو شقاء الآخرة؛ لأنَّه إذا سلم من الضَّلال في الدُّنيا؛ سلم من الشَّقاء في الآخرة[3]، فههنا أمرانِ: طريقةٌ وغايةٌ، فالطَّريقةُ: الهُدى، والغايةُ: السَّعادةُ والفلاحُ، فمَن لم يسلُكْ هذه الطَّريقةَ؛ لم يَصِلْ إلى هذه الغايةِ[4].

دلالةُ الجمعِ بين نفي الضَّلال ونفي الشَّقاء:

بيانُ أنَّ كمالَ السَّعادة في كمال الهداية

في قَولِه تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ بيانٌ أنَّ ثوابَ المُتَّبِعينَ لهداه، أنَّهم لا يَضِلُّون، ولا يَشقَونَ،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 16/ 330.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 361.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 16/ 331.
(4) ابن القيم، الصَّواعق المرسلة: 3/ 1128.

ونفيُ الضَّلالِ والشَّقاءِ عنهم يتضَمَّنُ كمالَ الهدايةِ والسَّعادةِ في الدُّنيا والآخرةِ[1]، فالهُدى والسَّعادةُ مُتلازِمانِ، والضَّلالُ والشَّقاءُ مُتلازِمانِ، وكثيرًا ما يقرِن البيان القرآني بين الضَّلالِ والشَّقاءِ في القرآن الكريم[2].

سِرُّ تكرارِ قصَّةِ آدم عليه السلام في القرآن الكريم:

تعليمُ العبادِ امتثالَ الأمرِ واجتنابَ النَّهي من مقاصد هذه القصَّة

كُرِّرت هذه القِصَّة في سبع سورٍ من القرآن تعليمًا للعباد امتثال الأمرِ، واجتناب النَّهي[3]، وإبرازًا للمعنى الواحد في صور شتّى؛ دفعًا للملالة، وتسلية لقلب النَّبيِّ ﷺ بإعلامه بما وقع لأبيه آدم من امتحانات قبل النُّبوَّة وبعدها، كما أنَّ في تكرار هذه القصَّة ملمحًا من ملامح التَّحدّي؛ للإخبار بعجز العربِ عن مضاهاتها، مهما كان أسلوبُها متكرِّرًا، وسياقها متلاحمًا، ناهيك عن كون تكرار القصَّة دليلًا على أهميَّتها، وبروز مقصد العنايةِ بها، حيث إنَّها وردت متنوِّعةً، فزيدَت في كلِّ ورود لفتةٌ لم تكن موجودةً في سابقتها أو لاحقتها، ومع كونها مكرَّرةً، فإنَّه لم يُلحظ فيها أيُّ تناقضٍ، بل بالعكس جاءت منسجمةً متكاملة متَّسقة في أعمق معنًى، وأنصع بيان.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الهبوط والنّزول:

هبوطُ نزولٌ واستقرار وفيه معنى الاستخفاف

النزول والهبوط كليهما يكون من أعلى إلى أسفل معنويًّا أو حسيًّا، لكنه في النزول يكون مع الحفاظ على رتبة النازل، كنزول القرآن، أما الهبوط فإن رتبة الهابط تختلف، لأنه ينتقل من درجة إلى أخرى دونها، كهبوط آدم عليه السلام، وبني إسرائيل، بخلاف النزول فهو يحافظ على درجته.

(1) العثيمين، مجموع فتاوى ورسائل العثيمين: 20/ 268.
(2) ابن القيم، مدارج السّالكين: 1/ 37.
(3) الصاوي، حاشية الصّاوي على الجلالين: 2/ 443.

ويُقال: هَبَطَ المرضُ لحمَ العليلِ، أي: حطَّهُ عنه، والهبيطُ الضّامر من النُّوق وغيرها، إذا كان ضَمرُهُ من سوء غذاءٍ، وقِلَّة تفقُّدٍ[1].

كما أنَّ الهُبوطَ نزولٌ تعقبه إقامةٌ، ومن ثمَّ قيل: هبطنا مكان كذا، ومنه: ﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا﴾ [البقرة: 61]، ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ﴾ [البقرة: 38]، ومعناه: انزلوا الأرضَ للإقامة فيها، ولا يقال: هبطَ الأرضَ إلّا إذا استقرَّ فيها، ويُقال: نزل وإن لم يستقرَّ[2].

وعليه فخصوصية لفظ الهبوط في سياق قوله تعالى: ﴿ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ﴾ تفيد أنه نزول يعقبه إقامة، واستعمال الجذر (هبط) يبيّن تغيُّرَ رتبة المهبوط إليه عن المهبوط منه.

(1) الرّاغب، المفردات: (هبط).

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 296، والمصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن الكريم: 11/ 235.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والثلاثون،
سورة طه من الآية 36 إلى الآية 131
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والثلاثون، سورة طه من الآية 36 إلى الآية 131
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 32 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-74-7
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 32 : المجلد الثاني والثلاثون، سورة طه من الآية 36 إلى الآية 131.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-74-7
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4565158 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»